رسائل الحماية الخارجية فى العصر العباسى الأول

د/ آمال يس عبد الخالق [*]

تمهيـــــد :

أسهمت الرسالة العربية بدور كبير في إدارة الشئون الخارجية للدولة العباسية، إذ أوضحت طبيعة علاقتها بالدول المجاورة لها، وأبرزت سياسة الخلفاء الخارجية، وبخاصة مع الدول التي تعودت الاصطدام بالمسلمين وشن الحروب عليهم . ومن أمثلة الرسائل التي أدت مهمتها في هذا الميدان : رسالة الرشيد[١] إلى نقفـــور[٢] مــلك الروم ورســالة المأمـــــون[١] إلى توفيل[٢] ملك الروم ورسالة أبو الربيع محمد بن الليث[٣] التي كتبها للرشيد إلى قسطنطين[٤] ملك الروم .

(*) مدرس الأدب العربى – كلية البنات – جامعة عين شمس.

(١) ولد الرشيد هارون بن محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بالريّ لثلاث بقيْن من ذي الحجة سنة ١٤٥هـ في خلافة المنصور. وبويع له بالخلافة في الليلة التي توفي فيها أخوه موسى الهادي سنة ١٧٠هـ. وتوفى ليلة السبت لثلاث ليال خلون من جمادي الآخرة سنة ١٩٣هـ.
انظر : الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة، دار المعارف، ط ٣ ، ج ٨ ، ص ٢٣٠ ، ٣٤٥ .

(٢) تذكر الروم أن نقفور هذا من أولاد جفنة من غسان، وأنه تولى ملك الروم بعد وفاة ريني ملكة الروم سنة ١٨٧هـ - ٨٠٣م وقيل سنة ٨٠٢م .. وقتل في حرب برجان سنة ١٩٣هـ - ٨٠٩م وكان ملكه فيما قيل سبع سنين أو تسع سنين .
انظر المصدر السابق، ج ٨ ، ص ٣٠٧، ٣٧٣. د/أسد رستم ، الروم وصلاتهم بالعرب، بيروت، دار المكشوف، ط ١٩٥٦، ج ٢ ، ص ٢٩٦ . الشيخ محمد الخضري، الدولة العباسية، المنصورة، مكتبة الإيمان ، ص ١٠٢ .

(١) ولد المأمون عبد الله بن هارون الرشيد سنة ١٧٠هـ ، وبويع بالخلافة سنة ١٩٨هـ ، وتوفي بالبديدون على عين القشيرة وهي عين يخرج منها النهر المعروف بالبديدون، وحمل إلى طرسوس، فدفن على يسار المسجد، وهو ابن تسع وأربعين سنة ٢١٨ هـ.
انظر : الطبري، ج ٨، ص ٢٣٣، ٢٥٧، ٦٣١ . المسعودي ، أبي الحسين علي بن الحسن بن علي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الكتاب العالمي، ط ٢ ، ١٩٩٠م، م ٢ ، ص ٣٩٥ .

(٢) ولي توفيل بن ميخائيل ملك الروم سنة ٨٢٩م – ٨٤٢م.
انظر : د/أسد رستم، الروم وصلاتهم بالعرب، ص ٢٩٦ . الشيخ محمد الخضري، الدولة العباسية، ص ١٦٨ .

(٣) أبو الربيع محمد بن الليث : هو محمد بن الليث ويكنى أبا الربيع، وكتب ليحيى بن خالد ، وله كتاب الهليلجة في الاعتبار وكتاب الرد على الزنادقة وكتاب جواب قسطنطين عن الرشيد ... الخ.
انظر : ابن النديم، الفهرست، تحقيق الشيخ إبراهيم رمضان، بيروت، دار المعرفة، ط ٢ ، ١٩٩٧م، ص ١٥٢.

(٤) ولي قسطنطين السادس ملك الروم سنة ٧٨٠م – ٧٩٧م.
انظر : د/ أسد رستم، الروم وصلاتهم بالعرب، ص ٢٩٦ ، الشيخ محمد الخضري، الدولة العباسية، ص ١٠٢.

الرسائل ومظاهرها :

الرسائل :

لكي نقف على إشارات وإحالات رسالة الرشيد إلى نقفور ملك الروم، لابد من التعرف على رسالة ملك الروم التي ضمنها معاني مستفزة وعدائية رآها الرشيد هجومًا على شخصه وعلى الدولة . فالوقوف على تلك الرسالة يجعلنا نمضي باطمئنان في تحليل رسالة الرشيد .

كان الصلح قد تم بين الرشيد و"ريني" [١] ملكة الروم بعد حروب كثيرة دارت بينهما فترة طويلة، ولكن الروم ما لبثوا أن انقلبوا عليها فخلعوها وملـــَّكوا نقفور، فلما استوثقت له الروم بالطاعة كتب إلى الرشيد رسالته التهديدية وهذا نصها : "من نقفور ملك الروم ، إلى هارون ملك العرب، أما بعد؛ فإن الملكة التي كانت قبلي، أقامتك مقام الرّخ، وأقامت نفسها مقام البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقًا بحمل أمثالها إليها؛ لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك"[٢] .

الرسالة الأولى :

فلما قرأ الرشيد الكتاب، استفزه الغضب وكتب إليه :

"بسم الله الرحمن الرحيم : من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم؛ قد قرأت كتابك يا بن الكافرة، والجواب ما تراه دون أن تسمعه . والسلام"[٣].

---

[١] تولت ريني ملك الروم سنة ٧٩٧ – ٨٠٢م وقد ماتت بعد خمسة أشهر من خلع الروم إياها.
انظر : الطبري، ج ٨ ، ص ٣٠٧ . د/ أسد رستم ، ص ٢٩٦ .

[٢] الطبري : ج ٨ ، ص ٣٠٧ ، ص ٣٠٨، الرّخ، أداة من أدوات الشطرنج م ٤، ص ١٠٧، اعتمدت في شرح هذه المفردة على ابن منظور، لسان العرب، القاهرة، دار الحديث .

[٣] الطبري، ج ٨ ، ص ٣٠٨ .

وقد تبادل المأمون وتوفيل ملك الروم الرسائل بعد غزو المأمون لبلاد الروم سنة ٢١٥هـ ، وكانت غزوته مظفرة، فلما مضى عامان بعدها، وآنس ملك الروم في نفسه شيئًا من القوة ، كتب إلى المأمون يطلب الصلح وضمن رسالته بعض التهديد ونصها : "أما بعد، فإن اجتماع المختلفَيْن على حظهما أولى بهما في الرأي مما عاد بالضرر عليهما؛ ولست حريا أن تدع لحظ يصل إلى غيرك حظًا تحوزه إلى نفسك، وفي علمك كاف عن إخبارك؛ وقد كنت كتبت إليك داعيًا إلى المسالمة، راغبًا في فضيلة المهادنة، لتضع أوزار الحرب عنّا، ونكون كل واحد لكل واحد وليًّا وحزبًا، مع اتصال المرافق، والفُسح في المتاجر، وفك المستأسر، وأمْنِ الطرق والبيضة؛ فإن أبيت فلا أدبُّ لك في الخَمَر، ولا أزخرف لك في القول، فإني لخائض إليك غمارها، آخذ عليك أسدادها، شانٌ خيلَها ورجالها، وإن أفعل فبعد أن قدّمتُ المعذِرةَ، وأقمتُ بيني وبينك عَلَمَ الحجّة. والسلام" (١) .

الرسالة الثانية :

وقد ردَّ المأمون على هذه الرسالة بقوله :

"أما بعد ؛ فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليه من الموادعة، وخلطت فيه من اللين والشدة؛ مما استعطفت به ؛ من شرح

---

(١) الطبري ، ج ٨ ، ص ٦٢٩ .
المهادنة : هَدَن : سكن وهادَنَه مهادنة : صالحه والاسم منهما الهُدْنة :السكون بعد الهيج . ويقال للصلح بعد القتال والموادعة بين المسلمين والكفار . وبين كل متحاربين، م ٩، ص ٥٨ . أوزار الحرب : الأثقال والآلات واحدها وزرٌ ، م ٩، ص ٢٨٨ . المرافق: جمع مرفق : ما استعين به، م٤ ، ص ٢٠٣. الفُسح :جمع فسحة بالضم وهي السَّعة، م٧، ص ٩٩ . البيضة : ساحة القوم، م١ ، ص ٥٦٦ . الخَمرَ : بالتحريك : ما واراك من الشجر والجبال ونحوها، ويقال توارى الصيد عني في خَمر الوادي، م٣ ، ص ٢١٥. غِمارها : غمرات الحروب وغمارها : شدائدها ، م٦ ، ص ٦٧١. أسدادها : جمع سُدٍّ وهو الجبل أو الحاجز، م٤ ، ص ٥٣٠ .
انظر : شروح المفردات السابقة في ابن منظور، لسان العرب .

المتاجر، واتصال المرافق، وفك الأساري، ورفع القتل والقتال، فلولا ما رجعتُ إليه من إعمال التُّؤدَة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة، وألا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلا ما أوثره في معتقبه، لجعلت جواب كتابك خيلا تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمَائكم، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثم أوصل إليهم من الأمداد،وأبلغ لهم كافيًا من العُدَّة والعتاد، هم أظمأ إلى موارد المنايا منكم إلى السلامة من مخوف معرّتهم عليكم، موعدهم إحدى الحسنيين: عاجل غلبة أو كريم مُنقلب ؛ غير أني رأيت أن أتقدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة؛ من الدعاء لك ولمن معك إلى الوحدانية والشريعة الحنيفية؛ فإن أبيت ففدية توجب ذمة، وتثبت نظرة، وإن تركت ذلك، ففي يقين المعاينة لنعوتنا ما يُغني عن الإبلاغ في القول والإغراق في الصفة . والسلام على من اتبع الهدى" [١] .

الرسالة الثالثة :

أما رسالة الرشيد إلى الملك قسطنطين فهي تدعو الملك إلى الدخول في دين الإسلام والإيمان بما جاء فيه يقول الرشيد فيها :

---

(١) الطبري ، ج ٨ ، ص ٦٢٩، ٦٣٠ .
الموادعة : وَدَع الرجل يَدَعُ إذا صار إلى الدَّعة والسكون، والموادعة والتوادع شبه المصالحة والتصالح . ويقال : وادعتُ العدوّ إذا هادنته، م٩ ، ص ٢٥٦ . التُّوَدة : التأني في الأمر، م١ ، ص ٦٣٧ . الحظ : النصيب الوافر، م٢، ص ٥٠١ . ثكلكم : الثُكل الموت والهلاك، م١، ص ٦٨٨ . يستقلون :استقله رآه قليلا، م٧، ص ٤٧٩ . شوكتكم : الشوكة شدة البأس، م٥، ص ٢٣٢ . الأمداد : جمع مدد وهم الأعوان والأنصار الذين كانوا يمدون المسلمين في الجهاد، م٨، ص ٢٢٩ . أبلغ : الإبلاغ الإيصال، م١، ص ٤٩٨ . العدّة والعتاد : ما أعددته لحوادث الدهر من المال والسلاح، يقال : أخذت للأمر عُدَّته وعتاده، م٦، ص ١١٨ ، ١١٩ . الحسنيين : يقول الله عز وجل في كتابه الكريم "قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيان" (التوبة، آية ٥٢) ، فسَّر ثعلب فقال : = =الحُسْنيان الموتُ أو الغلبة ويعني الظفر أو الشهادة، م٢، ص ٤٥٠ . مُنقلب : مصير العباد إلى الآخرة، م٩ ، ص ٤٦٣ . الحنيفية : ملة الإسلام، م٢ ، ص ٦٣٠ . نظرة : النظِرة بكسر الظاء :التأخير في الأمر، م٨ ، ص ٦٠٧ .
انظر : شروح هذه المفردات في ابن منظور، لسان العرب.

"من عبد الله هارون أمير المؤمنين إلى قسطنطين عظيم الروم : سلام على من اتبع الهدى ، فإني أحمَد اللهَ الذي لا شريك معه، ولا وَلَدَ له، ولا إله غيرُه، الذي تعالى عن شَبَه المحدودين بعظمته، واحتجبَ دون المخلوقين بعزّته، فليست الأبصار بمُدْركةٍ له، ولا الأوهام بواقعة عليه، انفرادًا عن الأشياء أن يُشْبِهَها، وتعاليًا أن يشبهه شيء منها، وهو الواحد القهّار، الذي ارتفع عن مَبَالغ صفات القائلين ومذاهب لغات العالمين، وفكرَ الملائكة المقرَّبين، فليس كمِثْله شيء وله كل شيء، وهو على كل شيء قدير.

"أما بعدُ، فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه ، قال لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل من آيات الوحي إليه : **﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾** [١] فرأى أمير المؤمنين من أحسنِ قوله، وأفضلَ فعله؛ أن يكون إلى سبيل ربه داعيًا، وبرسوله صلى الله عليه وسلم متأسيًّا، ولقوله **﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾** [٢] مُوَافِقًا، وكنت – من كُتبِ الله المنزّلة، وآياته المفسّرة، وخلقه الكثير – بحيث رَجَا أمير المؤمنين استماعَك لموعظته، وانتفاعك بمجادلته انتفاع بشر كثير وخلق عظيم، قد بُؤْتَ بأوزارهم مع وِزْرك، واحتملتَ من آثامهم إلى إثمك فأحَبَّ أن يدعوك ومَن رجا أن ينتفع بدعوته معك، إلى كلمةٍ سواءٍ بيننا وبينكمُ ألاَ نَعْبُدَ إلا الله ولا نُشرِكِ به شيئًا ولا يتخِذَ بعْضُنا بعْضًا أرْبابًا مِنْ دون الله ، فإن توليتم عن ذلك رغبةً عنه، أو تركتموه

(١) سورة النحل ، الآية رقم (١٢٥) .
(٢) سورة فُصِّلت، الآية رقم (٣٣) .

زهادةً فيه، فاشهدوا بأنا مُسلمون، واستمعوا ما أمير المؤمنين واصِفٌ لكم، ومحتج به إن شاء الله عليكم، بقلوب شاهِدة، وآذان واعيةٍ ، ثم اتبعوا أحسن ما تستمعون ، ولا قوّة إلا بالله .

"فإن الله عز وجل يقول فيما أنزل من كتابه، واقتصَّ على عباده: **﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُوْلَئِكَ هُمْ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ﴾** (١) . إن الله تبارك اسمه وتعالى جدُّه، وصف فيما أنزل من آياته ، وشرح من بيّناته، الأمم الماضية، والقرون الخالية، والمِلل المتفرقة، الذين يجعلون مع الله آلهة أخرى لا برهان لهم بها، ولا حُجة لهم فيها، فقال : **﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لاَ تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلاَ تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ إِلاَّ الْحَقِّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَلاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ إِنَّمَا اللّهُ إِلَـهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾** (٢) .

"قالت العرب الذين يعبدون الملائكة، وأهل الكتاب الذين يقولون ثالث ثلاثة : بأيَّتما آية يا محمد تزعم أن الله إله واحد ! فأنزل الله عز وجل في ذلك آية تشهد لها العقول ، وتؤمن بها القلوبُ، وتعرفها الألباب ، فلا تستطيع لها ردًا ، ولا تطيق لها جَحْدًا، ذكر فيها اتصال خَلقِه، واتفاق صُنْعِه، ليُوقن الجاهلون من العرب والضّالون من أهل الكتاب، أنّ اله السماء والأرض وما بينهما من الهواء والخلق واحدٌ لا شريك له، خالق لا شيء معه، فقال : **﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاء فَأَحْيَا بِهِ الأرْضَ**

(١) سورة الزمر ، الآيتان ، رقم (١٧ ، ١٨) .
(٢) سورة النساء، الآيتان رقم (١٧١، ١٧٢)

بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخِّرِ بَيْنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [١] . فتفكر في تفسير هذه الآية من كلام الرب عز وجل، وما أوضح فيها من بيان الخلق، فإنه ما من مفكر ينظر فيما ذكر الله فيها مما بين السماء والأرض، إلا رأى من اتصال بعض ذلك ببعض مثل ما رأى في تدبيره نفسه، وعَرف من اتصال خلقه فيما بين ذوائب شئون رأسه، إلى أطراف أنامل قدَمه، وفي ذلك أوضح آية، وأبين دلالةٍ ، على أن الذي خلقه وصنعه إله واحد لا إله معه، ولا من شيء ابتدعه، ولا على مثال صنعه، قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم، أن الله عز وجل خلق للأنام الأرض، وجعلها موصولة بالخلق، فليس يدحوها إلا لهم، ولا يديمها إلا معهم . وجعل ذلك الخلق متصلاً بالنبت، لا يقوم إلا به، ولا يصلح إلا عليه، وجعل ذلك النبت الذي جعله متاعًا لكم، ومعاشًا لأنعامكم متصلاً بالماء الذي ينزل من السماء بقدر معلوم لمعاش مقسوم، فليس ينجم النبت إلا به، ولا يحيا إلا عنه ، وجعل السحاب الذي يبسطه كيف يشاء، متصلاً بالرِّيح المُسخّرة في جو السماء تثيره من حيث لا تعلمون وتسوقه وأنتم تنظرون ..."[٢].

مظاهر الرسائل الثلاث :

وتعكس لنا هذه الرسائل الرسمية الثلاث عدة مظاهر تتعلق بكاتب الرسالة وبموضوعها وبالبنية الشكلية للرسالة وبفنية الأداء الذي قدم به موضوعها .

---

(١) سورة البقرة ، الآية رقم (١٦٤) .
(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، بيروت، المكتبة العلمية، م ٣ ، ص ٢١٧ : ٢٢٠ . والرسالة طويلة تقع في سبع وخمسين صفحة اجتزأنا منها هذا القدر من السطور .
ذوائب : ذؤابة كل شيء أعلاه، م٣، ص ٤٨٠ . ينجم : نجم الشيء ينْجُم بالضم ، نُجومًا : طلع وظهر، م٨ ، ص ٤٧١ .
انظر : شرح المفردات في ابن منظور ، لسان العرب .

المظهر الأول : وهو متعلق "بكاتب الرسالة" فيتضح لنا أن الرسالة الأولى (رسالة الرشيد إلى نقفور ملك الروم) والرسالة الثانية (رسالة المأمون إلى توفيل ملك الروم) فقد صدرت كل واحدة منهما عن كاتبها بشخصه إذ ربما أراد كل كاتب التعبير بنفسه عما يعتريه من مشاعر الغضب تجاه المرسل إليه، أما الرسالة الثالثة (رسالة الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم) فقد كتبها أبو الربيع محمد بن الليث نيابة عن الرشيد، ومن ثم قد تكون المعاني الواردة في الرسالة جميعها للرشيد، وربما يكون له بعضها، من حيث أن الكاتب يصوغ معاني الخليفة بأسلوبه الخاص .

وأما المظهر الثاني المتصل "بموضوعات الرسائل" فنلاحظ أن هذه الرسائل عبّرت عن حقيقة الموقف الدولي وجهود الخلفاء فيه وسياستهم إزاء المشكلات التي تتعرض لها من قِبَل الدول المجاورة لها . وعلى هذا فإن هذه الرسائل حسب الموضوع تدور حول محور أساسي وهو ضرورة الحرص على حماية الدولة خارجيًا ، وإن اختلفت السياسة التي اتبعها كل خليفة لتحقيق ذلك .

ففي الرسالة الأولى التي أرسلها الخليفة الرشيد إلى نقفور يتبين لنا حماس الرشيد وحسن قيادته، إذ كان رد فعله على ما ورد في رسالة ملك الروم من تهديد سريعًا . فقد قاد حملة كبيرة وتوغل داخل الأراضي البيزنطية ونزل على مدينة هِرَقلة، ففتحها واشتد في تخريبها وغنم منها غنائم كثيرة، فطلب نقفور الموادعة على خراج يؤديه في كل سنة فأجابه الرشيد إلى ذلك [١] . إلا أن نقفور نقض العهد فقام الرشيد بعدة غزوات بقيادة كبار قادته حتى اضطر الامبراطور نقفور في نهاية الأمر إلى طلب الصلح ودفع الجزية عن رأسه وولّي عهده وسائر أهل بلده [٢].

---

(١) انظر : الطبري ، تاريخ الأمم والملوك، ج ٨ ، ص ٣٠٨ .
(٢) السابق ، ج ٨ ، ص ٣٢٠ ، ٣٢١ .

ومن هنا استطاع الرشيد من خلال رسالته تحقيق هدفين أساسيين: الأول: حماية الدولة من خطر يهددها من الخارج والمتمثل في دولة الروم، والثاني : كسب شرف الجهاد وثوابه.

وفي الرسالة الثانية رسالة المأمون إلى توفيل ملك الروم، تتضح لنا السياسة التي اتبعها المأمون تجاه البيزنطيين، تلك السياسة التي جمع فيها بين التروي والحلم، فنجده يتأمل كتاب ملك الروم وما تضمنه من تهديد ويتأنى قبل إصدار قراره ولاسيما أن هذا القرار يمس الرعية، كما نجده يتحلى بالسيطرة على انفعالاته إذ لم يتح الفرصة لمشاعره الغاضبة أن توجهه . ولقد نجح المأمون في مزج السياسة بالحرب ذلك عندما أخبر ملك الروم أنه لولا سياسته تلك لأرسل إليه خيلاً تحمل رجالاً يتقربون إلى الله بدماء أعدائهم ويرجون إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة . ثم يعرض عليه في آخر الرسالة واحدة من ثلاث : الدخول في دين الإسلام ، فإن لم يستجب ففدية توجب ذمة، فإن أبى فالحرب التي يعانيها .

وأما الرسالة الثالثة رسالة "أبو الربيع محمد بن الليث عن الرشيد إلى قسطنطين ملك الروم" فتبين سياسة الرشيد ، حيث مزج فيها بين اللين والشدة مزجًا يكاد يكون عادلاً، فقد قام أولاً بدعوة ملك الروم للدخول في الإسلام ، وكأنه أراد بدعوته تلك كسب ثواب إدخاله في الشريعة الحنيفية، بالإضافة إلى تجنيب المسلمين ويلات الحروب .

وفي حالة عدم استجابة ملك الروم إلى تلك الدعوة وجبت عليه الجزية، فيقول الرشيد في رسالته : " ... فإن أمير المؤمنين ينصح لك فيما فيه الصلاح في عاجلتك من إعطاء الجزية التي يحقن الله بها دماءكم ،

ويحرم بها سباءكم، ويجعلها قوامًا لمعاشكم، وصلاحًا لبلادكم ..." [١] فإن امتنع أيضًا عن دفع الجزية فسوف يعلن الرشيد الحرب عليه وهذا ما بينه في الرسالة عندما قال : "... فليس بين أمير المؤمنين وبينكم إلا الإسلام أو الحرب المجلية إن شاء الله..."[٢]

وأما المظهر الثالث : المتصل بالبنية الشكلية للرسالة فنلاحظ أن البنية الأساسية للرسالة بوجه عام تتكون – كما تتجلى عبر الوثائق الكتابية الوفيرة المأثورة عن ذلك العصر – من مقدمة وغرض وخاتمة . فمقدمة الرسالة تتشكل من عدة عناصر هي بالترتيب : البسملة ، اسمي المرسل والمرسل إليه، والدعاء للمرسل إليه بما يوافق مكانته ، والسلام وهو تحية المكتوب إليه، والتحميد وهو حمد الله والإقرار بوحدانيته، والبعدية وهي صيغة التخلص أو الانتقال "أما بعد" . أما الغرض فهو الموضوع الذي من أجله أنشئت الرسالة . وأخيرًا الخاتمة وهي إنهاء الرسالة بما يراه كاتبها ملائمًا لموضوعها فقد يختمها بآية قرآنية أو بيت شعر أو بلفظ المشيئة أو بالسلام ... إلى غير ذلك من خواتيم .

لكن لم تلتزم الرسائل جميعًا في العصر العباسي الأول بهذا التشكيل، حيث تعرضت لألوان من التغيير، سواء أكان ذلك بالحذف أم بالتقديم أم بالتأخير . وربما كان ذلك بسبب اختلاف نوع الرسائل وموضوعاتها ، وطبيعة العلاقة بين طرفي الاتصال (المرسل والمرسل إليه) .

فإذا تأملنا الرسائل الثلاث نلاحظ أن الرشيد في رسالته إلى نقفور ملك الروم قد افتتحها بأول ما يجب أن تفتتح به مقدمات المكاتبات "بسم الله

---

(١) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب، م ٣ ، ص ٢٦٨ .
(٢) السابق ، م ٣ ، ص ٢٧٤ .

الرحمن الرحيم"[١] ، ثم ذكر اسمي المرسل والمرسل إليه وبيّن مكانة كل منهما في دولته فقال : "من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم"[٢] وانتقل بعد ذلك إلى عرض غرضه الأساسي من كتابة هذه الرسالة وهو إعلان الحرب على إمبراطورية الروم ، ثم ختمها بلفظ "السلام"[٣] . ونلاحظ أن الرشيد قد أسقط أغلب عناصر المقدمة من رسالته إذ أسقط : الدعاء للمرسل إليه والسلام في أولها والتحميد وصيغة الانتقال "أما بعد" .

وقد بدأ المأمون رسالته إلى توفيل ملك الروم بصيغة التخلص "أما بعد"[٤] وانتقل بعدها إلى عرض الموضوع وهو بيان السياسة التي اتبعها تجاه البيزنطيين، ثم ختم رسالته بقوله : "والسلام على من اتبع الهدى"[٥] وهو سلام غير المسلم . ونلاحظ أن المأمون أسقط من رسالته أيضًا أغلب عناصر المقدمة فأسقط : البسملة ، واسمي المرسل والمرسل إليه، والدعاء للمرسل إليه والسلام في أولها، والتحميد .

وأظن أن إسقاط أغلب عناصر المقدمة من الرسالتين السابقتين إنما جاء اختصارًا وذلك لصدورهما في وقت تأزمت فيه العلاقة واشتدت الحرب بين الدولة العباسية وإمبراطورية الروم، فالإسقاط هنا يلائم طبيعة موضوع كل منهما وما يحمله من معاني التهديد والوعيد .

أما الرشيد في رسالته إلى قسطنطين ملك الروم فقد بدأها بذكر اسمي المرسل والمرسل إليه وبيّن مكانة كل منهما فقال : "من عبد الله هارون أمير

---

[١] الطبري ، ج ٨، ص ٣٠٨ .
[٢] السابق .
[٣] السابق .
[٤] الطبري، ج ٨، ص ٦٢٩ .
[٥] السابق ، ج٨ ، ص ٦٣٠ .

المؤمنين إلى قسطنطين عظيم الروم ..."[1] ثم قدم التحية للمرسل إليه وذلك في قوله : "... سلام على من اتبع الهدى..."[2]، وبعد ذلك حمد الله عز وجل وأقرّ بوحدانيته فقال : "... فإني أحمد الله الذي لا شريك معه ولا ولد له، ولا إله غيره ..."[3]، وأثبت صيغة التخلص "أما بعد"[4] وانتقل بعدها إلى عرض غرضه من كتابة الرسالة وهو دعوة ملك الروم للدخول في الإسلام، فإن أبى وجب عليه الجزية، فإن امتنع فالحرب، ثم يختم الرسالة بقوله : "... والسلام على من اتبع الهدى ..."[6] ولم يسقط الرشيد من عناصر المقدمة سوى البسملة والدعاء للمرسل إليه .

وأظن أن إسقاطه البسملة ربما يرجع إلى أن صيغة السلام في أول الرسالة "سلام على من اتبع الهدى" تحدد مستوى العلاقة بين الطرفين، بالإضافة إلى ما تحمله من معنى عدم تآلف القلوب والجفاء والتعريض بعقيدة المرسل إليه، أما البسملة فتحمل في طياتها معان كثيرة منها : السلامة وتأليف القلوب في الدنيا، ومن هذا المنطلق أعتقد أن الرشيد لم يرد أن يحدث هذا التناقض في المعنى فأسقط البسملة وأثبت ما وجده ملائمًا لطبيعة العلاقة بينهما . كما أظن أن إسقاطه الدعاء للمرسل إليه يرجع أيضًا إلى أن العلاقة بين الطرفين لم تكن حميمة لحمله على الدعاء له .

ويتمثل **المظهر الرابع : المتعلق بفنية** الأداء المعبر عن موضوع هذه الرسائل في عدة ظواهر هي : المراوحة بين الإيجاز والإطناب، وموسيقا الأسلوب، والتصوير الفني، والتلاؤم بين الأسلوب والموقف .

---

(1) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب، م ٣، ص ٢١٧ .
(2) السابق .
(3) السابق ، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .
(4) السابق ، ص ٢١٨ .
(6) أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب ، م ٣ ، ص ٢٧٤ .

الظاهرة الأولى : المراوحة بين الإيجاز والإطناب

كل ما يدور في النفس من المعاني، ويخطر بالبال من أفكار، لا يعدو التعبير عنهما طريقًا من طرق ثلاث : الإيجاز والإطناب والمساواة . فيختار كل أديب للتعبير عما في نفسه طريقًا من هذه الطرق، فهو تارة يوجز، وتارة يسهب، وتارة يأتي بالجمل والعبارات بين بين، وهو في اختياره يراعي حال المتلقي، وما يدعو إليه المقام [1] . وأعتقد أنه لابد من مراعاة حال المبدع نفسه عند الاختيار، وما يكون في فنه النثري والشعري من إيحاءات تعبر عن موقفه الشخصي ورؤيته الخاصة تجاه الأشياء .

فإذا تأملنا الرسائل الثلاث نلاحظ ميل الرشيد في رسالته إلى نقفور إلى الإيجاز في عرض الموضوع وذلك لسرعة إبلاغ المرسل إليه بالقرار الذي اتخذه الرشيد إزاءه وهو قرار الحرب والذي عدّه الرشيد الرد الأمثل على تطاول نقفور عليه . ومن ثم اكتفى بوجازة التعبير واختيار الألفاظ البليغة القليلة الدالة على المعنى من غير حذف، وهذا الضرب من الإيجاز أطلق البلاغيون عليه "إيجاز قصر"[2] . ونجد ذلك في قوله : "... والجواب ما تراه دون ما تسمعه ..."[3] فنلاحظ هنا التلقائية في التعبير، والاعتماد على الألفاظ القليلة الدالة على المعنى المراد، ذلك المعنى الذي هدف الكاتب من خلاله ردع هذا الخصم . وترجع القيمة الفنية للإيجاز هنا في أنه أمد الأسلوب بالإيحاء الفني، وبإثارة خيال المتلقي[4] . إذا أتاح الفرصة له

---

(1) انظر : أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق حسن نجار محمد، القاهرة، مكتبة الآداب، ص ١٨٢ .

(2) الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة ، تحقيق د. عبد القادر حسين، القاهرة، مكتبة الآداب، ص ٢١٥ .
د.حسن البنداري، في البلاغة العربية علم المعاني، القاهرة، مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٩٠م، ص ٢٥٤.

(3) الطبري ، ج ٨ ، ص ٣٠٨ .

(4) انظر : د. حسن البنداري ، في البلاغة العربية علم المعاني ، ص ٢٥٤ .

لتصور الحرب التي سيشنها الرشيد على امبراطور الروم، وما سينال ملكها من تنكيل به وبأعوانه .

أما المأمون في رسالته إلى توفيل فقد مال إلى الإطناب في عرض الموضوع ، واتخذ لذلك صورتين؛ أولهما : "الإيضاح بعد الإبهام" وهذا ما نجده في قوله : "... موعدهم إحدى الحسنيين : "عاجل غلبة أو كريم منقلب..."[١] فقد اشتمل الكلام على كلمة مبهمة هي "الحسنيين" ثم قام الكاتب بتفسيرها بعد ذلك في قوله "عاجل غلبة أو كريم منقلب" ، وترجع القيمة الفنية لهذه الصورة في أن القارئ يرى المعنى من خلالها في صورتين مختلفتين، الأولى مبهمة والأخرى موضحة، فالمعنى المبهم تطوق النفس إلى معرفته، فإذا عرفته اكتملت اللذة بالعلم به، هذا بالإضافة إلى تقرير المعنى وتثبيته في ذهن القارئ"[٢].

والصورة الثانية : تتمثل في استخدامه "الألفاظ المترادفة" ، أي الألفاظ المتماثلة في المعنى الأساسي دون سائر المعاني [٣] ؛ هذا بالإضافة إلى استخدامه بعض الجمل التي تحمل نفس المعنى . ومن الألفاظ المترادفة ما نجده في مثل قوله : " ... فقد بلغني كتابك فيما سألت من الهدنة، ودعوت إليه من الموادعة ..."[٤] فالهدنة في الجملة الأولى والموادعة في الجملة الثانية لفظان مترادفان، أي متطابقان في المعنى الأساسي لهما في المعجم، فمعناهما السكون بعد الهيج والمصالحة أو التصالح بعد الحرب . وقد أتى

---

(١) الطبري ، ج ٨، ص ٦٣٠ .

(٢) انظر : الخطيب القزويني، الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق د. عبد القادر حسين، ص ٢٢٨ .
د. حسن البنداري، أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق، القاهرة، مكتبة الآداب، ط١ ، ٢٠٠٣، ص ٢٤٧ .

(٣) انظر : د. أحمد مختار عمر، علم الدلالة، القاهرة، عالم الكتب، ط ٥ ، ١٩٩٨، ص ٢٣٠. ف.ر. بالمر، علم الدلالة، إطار جديد، ترجمة د. صبري إبراهيم السيد، ص ٩٢ . د. رمضان عبد التواب، فصول في فقه العربية، القاهرة، مكتبة الخانجي، الطبعة الثالثة ١٤٠٨هـ ، ١٩٨٧م، ص ٣٠٩ .

(٤) الطبري ، ج ٨ ، ص ٦٢٩ .

بهما للتأكيد على ما لحق بالعدو من هزيمة وهلاك مما دفع الملك إلى طلب الصلح .

ومن الجمل التي أدت نفس المعنى ما نجده في مثل قوله : " ... فلولا ما رجعت إليه من إعمال التّؤدَة ، والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة، وألا أعتقد الرأي في مستقبله ، إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه ..."[١] فهذه الجمل كلها تحمل معنى التأني وعمق التفكير أتى بها ليثبت في ذهن القارئ أنه لا يتبع سياسة رد الفعل بل يتوخى الحذر والهدوء وضبط النفس قبل إصدار أي قرار .

وقد عمد الرشيد إلى الإطناب في رسالته إلى قسطنطين ، دفعه إلى ذلك طبيعة الموضوع الذي يعرض له وهو دعوة ملك الروم للدخول في الإسلام، فأخذ يسوق الحجج والبراهين الدالة على وحدانية الله عز وجل، وقد اقتضى ذلك منه أن يزيد في كلامه ويطوّل في آرائه لإقناع المرسل إليه بدعوته، فاستعان بالأدلة النقلية وأعني بها آيات من القرآن الكريم، ليثبت له أنه ينطلق من نص ديني يعتقد فيه ويخضع لمبادئه، ومن ثم لا يمكن للرشيد أن يتخلى عن أفكاره التي طرحها في رسالته، ثم قام بشرح وتفسير ما أورده من آيات، إذ ربما رأى أن الموقف يحتاج إلى مزيد من التفصيل حتى يسلِّم المرسل إليه بوجهة نظر المرسل .

مما سبق يتضح لنا أن الرشيد قد عرض الموضوع عرضًا متكاملاً قوامه الاستقصاء والتحليل والتمثيل بهدف إقناع المرسل إليه بما جاء في تلك الرسالة من أفكار .

---

[١] السابق .

ونجد الإطناب أيضًا في استخدامه للألفاظ المترادفة كما في قوله: "...قد بؤت بأوزارهم مع وزرك ، واحتملت من آثامهم إلى إثمك..."[١] فأوزارهم في الجملة الأولى وآثامهم في الجملة الثانية لفظان مترادفان، فمعناهما "ذنوبهم"، وقد أتى بهما للتأكيد على حرصه على أن ينجو هؤلاء بأنفسهم من عذاب الآخرة ومهالك القتال .

ومن الألفاظ المترادفة أيضًا قوله : "... قالت العرب الذين يعبدون الملائكة، وأهل الكتاب الذين يقولون ثالث ثلاثة : بأيِّتِما آية يا محمد تزعم أن الله واحد ! فأنزل الله عز وجل في ذلك آية تشهد لها العقول، وتؤمن بها القلوب وتعرفها الألباب ..." [٢] فالعقول والألباب لفظان مترادفان . وقوله : "... وفي ذلك أوضح آية، وأبين دلالة على أن الذي خلقه وصنعه إله واحد لا إله معه، ولا من شيء ابتدعه، ولا على مثال صنعه، قد ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم..."[٣] (فأوضح وأبين) لفظان مترادفان بمعنى الإيضاح، و(ابتدعه وصنعه) لفظان مترادفان بمعنى أنشأه وعَمِله وصنعه، و(ترون بعيونكم وتعلمون بعقولكم) إطناب أيضًا فالرؤية لا تكون إلا بالعين ، والعلم بالشيء لا يكون إلا بإدراكه بالعقل . وتكمن القيمة الفنية للإطناب في تلك الرسالة إلى تقرير وحدانية الله في ذهن المتلقي ليعرف قدر نعمه عز وجل التي لا تحصى فتزيد بصيرته في الطاعة.

الظاهرة الثانية : موسيقا الأسلوب

أطلق البلاغيون على موسيقا الأسلوب مصطلح "السجع"، والسجع في النثر هو : "توافق الفاصلتين في الحرف الأخير منهما، على أن يكون

---

[١] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، م ٣ ، ص ٢١٨ .
[٢] أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، م٣ ، ص ٢١٩ .
[٣] السابق .

المقصود بالفاصلة هنا الكلمة الأخيرة من الجملة أو العبارة التي تجعل كل منهما بإزاء الأخرى" [1] .

وينقسم السجع إلى أربعة أقسام هي : المطرّف والمتوازن والمتوازي والمرصع؛ فالمطرّف هو أن تختلف فواصله في الوزن وتتفق في الحرف الأخير، والمتوازن هو أن تتفق فاصلتاه في الوزن وتختلفا في الحرف الأخير، والمتوازي هو الذي اتفقت فاصلتاه في الوزن والحرف معًا، أما المرصع فهو الذي اتفقت ألفاظ الجملتين أو أكثرها في الوزن إضافة إلى اتفاق الحرف الأخير في فاصلتيهما [2].

وإذا تأملنا الرسائل الثلاث نجد أن رسالة المأمون إلى توفيل ورسالة الرشيد إلى قسطنطين قد حفلتا بالسجع بينما خلت منه رسالة الرشيد إلى نقفور وذلك لإيجازها .

ففي رسالة المأمون نلاحظ السجع في قوله : "... مما استعطفت به من شرح المتاجر، واتصال المرافق ..."[3] فاتفقت الفاصلتان (المتاجر والمرافق) في الوزن واختلفتا في الحرف الأخير، ونلاحظ أن الإيقاع الموسيقي في الجملتين قد جاء سريعًا ليوضح مدى الذل الذي لحق بملك الروم في إجمال، بالإضافة إلى تثبيت هذا المعنى في قلب المتلقي والتأثير عليه .

ونجد السجع أيضًا في قول المأمون ".... ينازعونكم عن ثكلكم ، ويتقربون إلى الله بدمائكم، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثم

---

(١) د. عبد الواحد علام، البديع المصطلح والقيمة، الكويت ، دار الكتاب الجامعي، ط٢، يوليو ١٩٩٦، ص ١٢٥.
(٢) انظر : د. حسن البنداري، الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق ، القاهرة، مكتبة الآداب، ط١، ٢٠٠٣، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ . د. عبد الواحد علام، البديع المصطلح والقيمة، ص ١٢٥ . أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص ٣٢٥ ، ٣٢٦ .
(٣) الطبري ، ج٨ ، ص ٦٢٩ .

أوصل إليهم من الأمداد، وأبلغ لهم كافيًا من العدّة والعتاد..."[1] فاختلفت الفواصل (ثكلكم ودمائكم وشوكتكم) في الوزن واتفقت في الحرف الأخير، كما اختلفت الفاصلتان (الأمداد والعتاد) في الوزن واتفقتا في الحرف الأخير. ونلاحظ أن إيقاع هذه الجمل قد جاء سريعًا للتأكيد على المعنى الذي يبغى المرسل إيصاله إلى المرسل إليه، والمتمثل في حرص المرسل (المأمون) على إعانة جيشه بكل ما أعدّه من مال وسلاح للقضاء على أعدائهم، ومن هنا يوقن المرسل إليه أن المرسل وجيشه يسعون دائمًا وراء النصر أو الشهادة في سبيل الله والوطن .

أما رسالة الرشيد إلى قسطنطين فنلاحظ فيها السجع في قوله : "... أن يكون إلى سبيل ربه داعيًا، وبرسوله صلى الله عليه وسلم متأسيًا ..." [2] فاختلفت الفاصلتان (داعيًا ومتأسيًا) في الوزن واتفقتا في الحرف الأخير، وتكمن القيمة الفنية للسجع هنا في نقل سماحة الدين الإسلامي إلى ملك الروم، ذلك عندما يتخاطب معه الرشيد بلغة الداعي في سبيل الله، متأسيًا في ذلك برسوله صلى الله عليه وسلم، منحيًا رجل السياسة والحرب جانبًا.

ونجد السجع أيضًا في قول الرشيد : "... ومحتج به إن شاء الله عليكم، بقلوب شاهدة، وآذان واعية ..."[3] فقد اتفقت الفاصلتان (شاهدة وواعية) في الوزن واختلفتا في الحرف الأخير وهو ما قبل التاء . ونلاحظ أن هذه الجمل تحمل للمرسل إليه ما سيناله في الآخرة إذ لم يستمع إلى موعظة المرسل، إذ ستشهد عليه كل حواسه بأنه رفض تلك الدعوة .

ومما سبق يتضح لنا توظيف كل من المأمون والرشيد لفن السجع في رسالتيهما، ذلك للتعبير عن عواطفهما ومعانيهما، كما نلاحظ أن السجع لم

---

(1) الطبري ، ج ٨ ، ص ٦٣٠ .
(2) أحمد زكي صفوت ، جمهرة رسائل العرب، م٣ ، ص ٢١٨ .
(3) السابق .

يأت في الرسالتين لمجرد تحسين اللفظ، بل ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالنص، معبرًا عما يجيش في نفس المرسل ، ومؤثرًا في نفس المرسل إليه : "فالكلام الموسيقي المتوازن على اختلاف ألوانه – هتاف النفس حين تضطرم بنوازع النشوة، والألم، والسرور، والحزن، والرضا والغضب، والبسط والفيض، وتبعثه في يسر في أعماقها سيلاً مدرارًا، كأنما تجد في تناغم ألفاظه ورنين أجراسه وتعاطف حروفه، متنفسًا لهذا الجيشان العنيف، أو تلطيفاً لهذه الثورة الصاخبة" (١) .

الظاهرة الثالثة : التصوير الفني

تعد الصورة الفنية عنصرًا أساسيًا في الأسلوب حيث تتحقق قوة الأسلوب "بقوة الصورة التي تتجاوز معناها الحرفي إلى معنى أو معانٍ أخرى مجازية، كالتمثيل والكناية والاستعارة"(٢) ، فالصورة إذاً وسيلة مؤثرة في نقل مشاعر الكاتب إلى القارئ، كما أنها تأتي موضحة للفكرة ومبرزة لها أو مدللة عليها، وقد تستثير الصورة – أحياناً – عاطفة القارئ فتقنعه بالفكرة التي يعرض لها الكاتب .

وقد حفلت الرسائل السابقة بصور نوعية متفاوتة ، وطرق تختلف بعضها عن بعض، في وضوح الدلالة على المعنى المراد التعبير عنه . وهذه الصور المختلفة تندرج تحت ما أطلق البلاغيون عليه "فن البيان"(٣). ومن هذه الطرق الكناية كما في قول الرشيد في رسالته إلى نقفور : "...والجواب

(١) على الجندي ، فن الأسجاع، مصر، سنة ١٩٥١، مطبعة دار الجامعة، ٩/١ .
(٢) د. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، القاهرة، لونجمان، ط ١، ١٩٩٤م، ص ١١٦.
(٣) انظر : أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ص ٢٠٣ .
عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع)، القاهرة، مكتبة الآداب ، ط ١٧، ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م ، ج٣ ، ص ٣٧٩ .

ما تراه دون ما تسمعه ..."[1] فكنى الكاتب من خلال هذه الجملة عن رد فعله العنيف على تطاول ملك الروم عليه ، ولم يصرح له بما سيفعله تجاهه بل أطلق لخياله العنان لتصور ذلك .

وتتضح الكناية أيضًا في قول المأمون في رسالته إلى توفيل : "... ينازعونكم عن ثكلكم، ويتقربون إلى الله بدمائكم، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم ..."[2] فكنى الكاتب هنا عن تفاني رجال جيشه في محاربة الأعداء، وشجاعتهم في ميدان الحرب، وإصرارهم على تحقيق النصر، ولم يصرح له بذلك بل دفع بالمرسل إليه إلى إدراك هذا المعنى من خلال تصويرهم أثناء محاربة الأعداء.

وتكمن القيمة الفنية للكناية في الجمل السابقة في ستر المعنى، ودفع القارئ إلى إعمال ذهنه لإدراكه ، وبهذا يتحقق هدف الكاتب الأساسي وهو تأكيد المعنى وتثبيته في نفس القارئ[3] .

ومن الصور الفنية في تلك الرسائل "الاستعارة المكنية" ، والتي نجدها في قول المأمون : "... هم أظمأ إلى موارد المنايا ..."[4] فالمعنى المعجمي الأساسي للفظة "موارد" هو المجاري والطرق إلى الماء، وقد استعار الكاتب هنا تلك الكلمة لشيء لم تعرف به وهو "المنايا" لشيء قد عرفت به وهو "الماء" الذي يلجأ إليه الظمآن ليروى عطشه ، لكنهم هنا أظمأ إلى التماس طرق الموت التي تعد بمثابة الماء عندهم، وذلك مرضاة لله تعالى وتفانيًا في خدمة الدولة والقضاء على أي خطر يواجهها .

---

(1) الطبري ، ج٨ ، ص ٣٠٨ .
(2) السابق ، ج ٨، ص ٦٣٠ .
(3) انظر : د. حسن البنداري ، الفنون البيانية والبديعية بين النظرية والتطبيق، ص ٢١٤ -٢١٦ .
(4) الطبري ، ج ٨، ص ٦٣٠ .

ونجد مثل تلك الاستعارة في قول الرشيد في رسالته إلى قسطنطين : "... واستمعوا ما أمير المؤمنين واصف لكم، ومحتج به إن شاء الله عليكم، بقلوب شاهدة ، وآذان واعية ..."[١] فالمعنى المعجمي للفظة (واعية) هو حفظ القلب الشيء وفهمه، فاستعار الكاتب هنا تلك الكلمة لشيء لم تعرف به وهو "آذان" التي يعد الأصل فيها الإنصات (الاستماع) فقط .

وللاستعارة في الجمل السابقة قيمة فنية تكمن في أنها تحرر اللفظة من قيود المعنى المعجمي الذي وضعت فيه خلال قرون من الزمن ودفعت به نحو علاقات ودلالات جديدة فأكسبته بذلك حياة جديدة تتمثل في المعنى الجديد الذي وضعها الكاتب فيه، وهذا المعنى يسعى القارئ (المرسل إليه) إلى إدراكه من خلال السياق .

ومن الصور الفنية أيضًا التشبيه الذي نجده في قول المأمون : "... موعدهم إحدى الحسنيين : عاجل غلبة أو كريم منقلب ..."[٢] فقد شبه النصر أو الشهادة في الحرب بصديقين حميمين لرجال جيشه، وأنهم دائمًا على موعد مع أحدهما . وللتشبيه هنا غرض فني هو إحداث الأثر المرجو في نفس المرسل إليه وهو ترهيبه عندما يتأكد في نفسه المعنى المراد توصيله إليه وهو إصرار رجال جيش المأمون على تحقيق النصر أو الشهادة في سبيل حماية دولتهم من أي خطر يتهددها .

فبلاغة التشبيه إذا تكمن في أنها تنتقل بالقارئ : "من الشيء نفسه إلى شيء طريف يشبهه، أو صورة بارعة تمثله، وكلما كان هذا الانتقال

---

(١) أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، م٣ ، ص ٢١٨ .
(٢) الطبري، ج ٨، ص ٦٣٠ .

بعيدًا قليل الخطور بالبال، أو ممتزجًا بقليل أو كثير من الخيال، كان التشبيه أروع للنفس، وأدعى إلى إعجابها واهتزازها"[١].

- **الظاهرة الرابعة : التلاؤم بين الأسلوب والموقف**

أعني بالتلاؤم بين الأسلوب والموقف : مراعاة الأسلوب للمقام الذي أنشئت فيه الرسالة، بمعنى أن يراعى الكاتب حالتين : حاله، وحال المرسل إليه، بحيث يدرك المواطن التي يستعمل فيها الخبر، والمواضع التي يعتمد فيها على الإنشاء .

فالأسلوب الخبري هو : "تعبير يلقى أو يقدم إلى المخاطب يشتمل على معنى قابل للتصديق والتكذيب" [١]. وقد عمدوا إلى تنويعه إلى عدة أنواع هي : الخبر الابتدائي والخبر الطلبي والخبر الإنكاري [٢].

كما عرّف البلاغيون الأسلوب الإنشائي الطلبي على أنه : "صيغة تركيبية يطلب فيها حصول شيء ليس موجودًا عند الطلب" [٣] . وقد نوّعوا هذه الصيغة إلى عدة أنواع هي : الأمر، والنهي، والاستفهام، والتمني ، والنداء [٤] .

فنلاحظ في **الرسالة الأولى** : "رسالة الرشيد إلى نقفور ملك الروم" إيثار الكاتب للأسلوب الخبري فقط في التعبير عن المعنى، ويتجلى هذا في قوله : "... والجواب ما تراه دون أن تسمعه..."[٥] فالخبر هنا جاء ملائمًا

---

(١) أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع ، ص ٢٣٣ .
انظر : قيمة التشبيه الفنية في د. صبحي البستاني، الصورة الشعرية في الكتابة الفنية الأصول والفروع ، بيروت ، دار الفكر اللبناني، ط ١ ، ١٩٨٦م ، ص ١١٢ – ١١٧ .

(١) د. حسن البنداري ، أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق ، ص ٢٨ . عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح، ج١ ، ص ٣٦. عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، القاهرة، الخانجي، ط ٥، ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م ، ص ١٣ .

(٢) د. حسن البنداري، أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق، ص ٣٩ . عبد المتعال الصعيدي، بغية الإيضاح ، ج ١ ، ص ٤٣ – ٤٥ .

(٣) د. حسن البنداري، أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق ، ص ٦٠ . أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة ، ص ٥٨ .

(٤) د. حسن البنداري ، أساليب علم المعاني بين النظرية والتطبيق ، ص ٦٠ – ٩٩ . أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة، ص ٥٨ .
القزويني ، الإيضاح في علوم البلاغة ، ص ١٦٤ : ١٨٠ .

(٥) الطبري، ج ٨، ص ٣٠٨ .

لحالة الكاتب النفسية وما يتملكه من مشاعر غاضبة تجاه المرسل إليه، كما أنه أتى به بغرض إفادة المتلقي (المرسل إليه) بالحكم الذي تضمنه الكلام، ولأن المرسل إليه خالي الذهن من هذا الحكم فإن الكاتب لم يؤكده له لعدم الحاجة إلى التوكيد.

وفي **الرسالة الثانية** : "رسالة المأمون إلى توفيل ملك الروم" نلاحظ مراعاة الكاتب لمقتضى الحال[١] فاستخدم الأسلوب الخبري في أداء الفكرة، ونتبين هذا في قوله : "... فلولا ما رجعت إليه من إعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة، وألا أعتقد الرأي في مستقبله إلا في استصلاح ما أوثره في معتقبه، لجعلت جواب كتابك خيلاً تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم، ويستقلون في ذات الله ما نالهم من ألم شوكتكم، ثم أوصل إليهم من الأمداد، وأبلغ لهم كافيًا من العدة والعتاد ..."[٢] وقد راعى الكاتب هنا حاله وما يجيش في نفسه من أحاسيس غاضبة تجاه المرسل إليه، ومن ثم استخدم الخبر فقط في رسالته بهدف نقل هذه المشاعر إليه، وإفادته بالأحكام التي تضمنها الكلام والمتمثلة في إيضاح سياسة المرسل وترويه قبل اتخاذ أي قرار ، وإبراز بسالة جيشه الذي لا يقنع إلا بالنصر أو الشهادة . ولأن المرسل خالي الذهن من هذه الأحكام فإن الكاتب لم يؤكدها له بأي مؤكد .

أما الكاتب في **الرسالة الثالثة** : "رسالة الرشيد إلى الملك قسطنطين" فقد مزج بين الأسلوب الخبري والأسلوب الإنشائي في التعبير عن المعنى . ويتضح هذا في قوله : "... أما بعد ، فإن الله جل ثناؤه وتباركت أسماؤه، قال

---

[١] د. أحمد أمين مصطفى، المأمون أديبًا، القاهرة، ط ١ ، ١٤١١هـ - ١٩٩٠م ، ص ٢٧٢ .
[٢] الطبري، ج٨ ، ص ٦٢٩ ، ٦٣٠ .

لنبيه صلى الله عليه وسلم فيما أنزل من آيات الوحي إليه : ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١] فرأى أمير المؤمنين من أحسن قوله، وأفضل فعله؛ أن يكون إلى سبيل ربه داعيًا وبرسوله صلى الله عليه وسلم متأسيًا ... واستمعوا ما أمير المؤمنين واصف لكم، ومحتج به إن شاء الله عليكم، بقلوب شاهدة، وآذان واعية، ثم اتبعوا أحسن ما تستمعون، ولا قوة إلا بالله ..."[٢] فنلاحظ أن الكاتب قد استخدم الأسلوب الخبري أولاً لأنه فطن إلى حاجة المتلقي (المرسل إليه) إلى بعض المعلومات عن الدين الإسلامي وسماحته، فأتى به لإفادته بهذه المعلومات التي تضمنها الكلام ولترغيبه في الدخول في الإسلام، ولإدراك الكاتب بأن المرسل إليه قد يكون مترددًا في الحكم طالبًا لمعرفته قام بتوكيده له بأداة التوكيد إن في قوله : "فإن الله جل ثناؤه..." لتقوية الحكم، وليتمكن في نفسه .

ثم يتحول الكاتب من الأسلوب الخبري إلى الأسلوب الإنشائي تحولاً مفاجئًا عندما شعر باحتياج المتلقي (المرسل إليه ومن معه) إلى النصح والإرشاد . ويتجلى هذا في قوله : "... استمعوا ما أمير المؤمنين واصف لكم، ومحتج به إن شاء الله عليكم، بقلوب شاهدة، وآذان واعية، ثم اتبعوا أحسن ما تستمعون، ولا قوة إلا بالله ..." فقد اشتمل الكلام على أسلوب أمر متمثل في الفعلين "استمعوا" و "اتبعوا" وقد خرج الأمر هنا عن معناه الأصلي و"هو طلب حصول الفعل من المخاطب على وجه الاستعلاء"[٣] . إلى معنى أخر يفهم من السياق ، ومن هنا تتجلى بلاغة هذا الأسلوب، وقد تمثل هذا المعنى في "النصح والإرشاد" ، حيث نصح الكاتب المرسل إليه بالإنصات إلى ما سيسوقه له من حجج وبراهين واتباع أفضل ما سيلقى عليه.

---

(١) سورة النحل ، آية رقم (١٢٥) .
(٢) أحمد زكي صفوت، جمهرة رسائل العرب، م٣ ، ص ٢١٨ .
(٣) أحمد الهاشمي ، جواهر البلاغة، ص ٥٩ .